الفصل الرابع

بين النظرية العرقية العنصرية الغربية والنظرية الإسلامية الإنسانية

obeikandl.com

obeikandl.com

النظرية العنصرية العرقية ومنشؤها:

لم يعرف الشرق نظرية عنصرية (بمعنى النظرية الشمولية المتكاملة)، فهي في أساسها نتاج الفلسفة الفكرية الغربية.

ويرى بعض الدارسين أن هذه النظرية لم تكن وليدة النازية عام 1920م، بل تمتد بجذورها إلى فلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومن أصحاب هذه النظرية (فريدرك ليست) و(آرثر جو بينو صاحب نظرية تفاوت الأجناس البشرية)، و(ريتشارد فاغنر)، و(فريدرك نيتشه)، و(أوستين تشمبرلن) الذي يعتبر أول دعاة الجامعة الألمانية التي تبناها بعد ذلك جورج شوبنير، وكذلك فيخته وليوبون وشوبنهور ولورد نورث إلفي.

وملخص نظريتهم العرقية التي تؤمن بها النازية هو التفوق العنصري للشعب الألماني.

ويرى الباحثون أن ألفريد روزنبرغ صاحب كتاب (أسطورة القرن العشرين) هو المؤسس الحقيقي للنظرية العنصرية وهو فيلسوف النازية الأكبر.

ولكننا مع كل ذلك نرى أن هناك نصوصاً دينية لدى اليهود فتحت الباب لنشوء النظريات العنصرية، كالنظرية النازية ونظرية العرق الأنجلوساكسوني وكذلك الفاشية.

يقول نص من التوراة سفر الخروج: (فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بيع جميع الشعوب) سفر التثنية 14 ـ 1.

وجاء في سفر التثنية أيضاً: (ولأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض). 26: 18 ـ 19.

وعلى الرغم من أن هذا الوعد هو نص توراتي مؤلف من قبل عزرا أيام وجود اليهود في بابل، إلا أنه يفسّر على أن الله وعدهم أن يكونوا شعبه المختار إن هم حفظوا عهد ربهم وسمعوا صوته ووصاياه.

ويرى الكثيرون من الدارسين اليهود أن هؤلاء لم يسمعوا لصوت ربهم ولم يحفظوا وصاياه وعهده، ولذلك انتفى انتقاؤهم كي يكونوا شعبه المختار، والتوراة نفسها تنص على مخالفتهم ربهم، ونقضهم لعهوده معهم.

لكن الذين شكلوا النظرية العرقية القائلة بشعب الله المختار، ظنوا أن هذا الاختيار دائم أبدي، واستطاعوا من خلال نظريتهم العرقية العنصرية أن يؤسسوا لما يسمى شعب الله المختار.

وانقسموا إلى يهود صهاينة وإلى بروتستانت، والأخيرون قالوا بأنهم شعب الله المختار الأنجلوساكسوني على غرار شعب الله المختار اليهودي.

وحينما نطالع النصوص الأساسية للفكرة الصهيونية نرى أن نظرية العرق والعنصر هي من تصدير زعماء الصهاينة الغربيين بمعنى أنها نظرية غربية صرفة، وتعبيرات مثل ـ شعب الرب ـ والشعب المختار أو الشعب المخصوص تستخدم عدة مرات في العهد القديم للإشارة إلى بني إسرائيل، وإسباغ هذا اللقب بشكل محدد على المسيحيين في العهد الجديد موجود في رسالة بطرس الأولى 2: 9 ـ 10.

يقول النص الإنجيلي:

وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملكي، أمة مقدسة شعب اقتناء لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب.

ولاشك أن الفاشية الإيطالية استفادت جداً من النازية الهتلرية في تأسيس نظريتها العنصرية، حيث أحيت الفاشية العنصرية الرومانية مثلما أحيت النازية العنصرية الآرية.

ولم تتوقف النظريات العنصرية عند هذا الحد بل طُورت مفاهيمها لتصل إلى ما يسمى صدام الحضارات عند المحافظين الجدد الذين يرون أن الأنجلوساكسونية

هي الأرقى بين حضارات الشعوب، وأن الشعب الأمريكي الأصلي هو الذي يعود بجذوره إلى أوروبا الغربية وعلى أمريكا أن تطرد من أراضيها كل العروق الأخرى من أمريكيين جنوبيين كونهم من الكاثوليك، أو من خليط بشري غير نقي، ومن عرب وأتراك وغيرهم من العروق الشرقية.

ونعتقد أن هذه الحركات العنصرية القائمة على النظرية العرقية ما تزال تحيا كل يوم في بعض بلدان أوروبا ولعل النازيين الجدد حالقي الرؤوس إحدى الحركات الجديدة التي تستمد من النظرية العرقية العنصرية مبادئها وسلوكها.

النظرية العرقية الأنجلوساكسونية:

قبل أن يُتهم الألمان بأنهم أسياد النظرية العرقية في أوروبا على العالم أن يعود إلى النظرية العرقية الأنجلوساكسونية والتي كان للإنجليز سبق الريادة فيها وفي هذا الإطار لابد أن نعود إلى أصول هذه النظرية والمؤثرات الدينية التي ساهمت في صنعها ثم ممارساتها العنصرية في شتى أنحاء العالم.

بداية لابد أن نرى أن مقولة الشعب المختار وهي في أساسها مقولة انتشرت على أساس أن الصهيونية هي التي صنعتها ـ لم تكن بعيدة عن الفكر الإنجليزي بعد أن تبنى النظام الملكي البريطاني المذهب البروتستانتي بدلاً من الكاثوليكية ولكن كيف تأصل مفهوم شعب الله المختار عند البريطانيين؟ ثم عند الأمريكيين بعد احتلال أمريكا من قبل الأوروبيين.

تعود المسألة إلى فهم مسيحي بريطاني لما يسمى اصطفاء الرب لشعبه، وقد افترض هؤلاء المسيحيون أن الميثاق الذي قطعه الله لبني إسرائيل انتقل إلى المسيحيين لذلك لم يعد اليهود مختارين.

وإذا ما فُسخ العهد القديم فإن الميثاق الجديد يحل محله ويتجاوزه.

والواقع أن فكرة الشعب المختار تلبست الإنجليز البروتستانت الذين ذهبوا محتلين لأمريكا مستندين إلى تفسيرات توراتية تتماهى مع الطرح التوراتي اليهودي

وتطبيقاً لهذه النظرة راحوا يقيمون المستعمرات في الأرض الجديدة مستخدمين حرب إبادة بحق الهنود الحمر باعتبارهم همجاً متخلفين ومن عرق أدنى. إضافة لاستعبادهم الأفارقة الذين كانوا يُسرقون من مناطق إفريقيا ويُباعون عن طريق تجار الرقيق.

وتتجلى مظاهر العنصرية في الأنجلوساكسونية في سلوك المستعمرين الجدد في أمريكا حيث فصلوا بينهم وبين جيرانهم الهنود الحمر في البدايات لذلك شنوا حروب الإبادة ضدهم.

والحقيقة أن المبدأ العام لا يزال سارياً، ذلك أن تلك الأمم التي شكلت هوياتها سواء في الحاضر أو في الماضي تحت لافتة الشعب المختار ماتزال تعمل على تحديد الجار بحيث يكون معناه أعضاء في نفس الوطن[1].

ويبدو أن المستوطنين الإنجليز من البروتستانت لم يعجبهم أن يبقوا تحت سلطة بريطانيا الملكية، فعندما قاموا بالثورة وطردوا القوات الإنجليزية أنهوا الإحساس المشترك بأنهم شعب الله المختار، وكان الافتراض الأمريكي أن الاختيار قد انتقل إليهم من بريطانيا بسبب انتهاكها الميثاق الإلهي بالسقوط في هاوية الطغيان، وأصبحت المكانة الفريدة لأمريكا وحدها.

وعندما بدأت بريطانيا تخسر مستعمراتها ظهرت نداءات عدة بإلغاء نظرية العرق الإنجليزي المتفوق ومن ثم إلغاء تجارة الرقيق.

وإذا أخفقت بريطانيا في تحقيق مستوى السلوك المتوقع منها باعتبارها الشعب المختار فإن الرب كان سيسمح للهزيمة في الحرب أن تنزل عليها، ومن الواضح أن بريطانيا كي تبقى الشعب المختار فإن عليها الحفاظ على العمل الطيب وصارت معاداة الرق وسيلة وطريقاً لتوضيح أن لقب الأمة المختارة كان ما يزال بحوزة بريطانيا وليست أمريكا، وصارت سبباً لمعاملتها على أنها أدنى من الناحية الأخلاقية[2].

---

(1) كليفورد لونجلي، الشعب المختار، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ص61، الجزء 2.

(2) المصدر السابق، ص74.

غير أن النظرية العرقية العنصرية الأنجلوساكسونية ظلت سائدة في جنوب الولايات المتحدة، لسبب أن معظم سكان الجنوب كانوا متعصبين لمقولة وردت في التوراة وهي لعنة نوح على كنعان (عبد العبيد يكون لإخوته) فهذا النص اعتمد عليه البروتستانت في أعماق جنوب أمريكا، ليس فقط لتبرير الرق حينما كان موجوداً وإنما أيضاً لتبرير خضوع السود حتى بعد أن انتهى الرق، وبذلك يبررون التفرقة العنصرية[1].

وحينما ندخل في تطبيق النظرية العنصرية الأنجلوساكسونية نرى أنها تستمر في الحياة اليومية في أمريكا وفي عدد من المناطق كجنوب إفريقيا وروديسيا ـ قبل أن تنقلب الأمور على البيض الذين كانوا قد أقاموا أنظمة عنصرية في تلك البقاع.

يرى الأمريكيون أنه لم يكن من الممكن أن يحتل الأنجلوساكسون أراضي أمريكا لولا أنهم شعب مختار، ويرون أن الله (غربل أمة بكاملها ليستطيع إرسال أفضل حبوبها كما فعل بالنسبة للعبرانيين، الذين كما يقول أحد المفكرين الغربيين أن الله رسم لهم درباً في البحر وأقام لهم مائدة في الصحراء).

ويرى الأنجلوساكسون في الأمركة (أمريكا) هي أن هذه المهمة الموكلة إلى الشعب المختار هي في الوقت نفسه التشريع في شؤون العالم، كل مواطن حرٌّ في الإمبراطورية يجب أن يعد نفسه مشرع نصف البشرية[2].

ويكتب الباحث الكبير شاتيليه عن العنصرية بقوله: يستند تناثر الأسواق واستقرار الأقليات الرائدة على اكتشاف قارة أمريكا الذهبية أو الفضية، وإخضاع السكان الأصليين للعبودية ودفنهم في المناجم، أو إبادتهم، وبداية الفتوحات والنهب في الهند الشرقية وتحويل إفريقيا إلى نوع من أرض صيد تجارية لصيد ذوي

---

(1) المصدر السابق، ص78.

(2) فرانسوا شاتيليه، تاريخ الأيديولوجيات، الجزء الثالث، ص268 ـ 269.

الجلود السوداء، والأسود ليس إلا إضافة أو ذيلاً للمنجم، أو المزرعة لذلك ينكر النظام العنصري إنسانيته فهو كحيوان أو آلة[1].

وما يميز السلطة البيضاء هو تباين الأنظمة الحقوقية فليس للعبد في جنوب أمريكا الحق في امتلاك ملكيات عقارية أو شخصية، والخيرات التي يمكن أن يحصل عليها تخص سيده، ويمكن في كل لحظة أن يباع أو يؤجر أو يُرهن ولا يمكن أن يكون طرفاً أمام محكمة، ولا يستطيع شراء حريته أو الحصول على تغيير لسيده، وحسب هذه النظرة الأنجلوساكسونية، أن خط اللون يطرد تدريجياً كل السود إلى شرط العبودية.

وفي جنوب إفريقيا لعبت الأقلية البيضاء، وهم من الأنجلوساكسون ما بين عامي 1924 و 1934 ورقة الهجناء الهندوسيين والآسيويين ضد ما أسموه الخطر الأسود، وقد ألحقوا بالسود مع بعض الفروق الصغيرة بضغط من صغار البيض.

وحسب نظام الرق في أمريكا: كان الأفارقة المخطوفون للاستعباد يوسمون بالحديد لتمييزهم عن السود الأحرار أو المحررين.

وتصل النظرية العنصرية الأنجلوساكسونية إلى حد القول بأن هناك مسلمات يجب الاعتراف بها، وهذه المسلمات تقول: إن للأبيض النظام والحرية والمثابرة وأن للأصفر الاستهتار وضآلة الذكاء، وأن للأسود الشره والموسيقى والتناسل وعدم الاستقرار.

ولايمكن الانتقال بين فئات في هذه الغرابة عن بعضها، فالحاجز عصي عن الاجتياز ورهان المشادة بين القائلين بالمنشأ الواحد والقائلين بتعدد المنشأ الكبير، فالمثل الأعلى سيكون إذ ذاك فعلاً تعدداً واقعياً في الأصول يقيم نهائياً ودون تردد التفوق الأبيض في الفرق المطلق[2]، فالبياض هو المبدأ الذي ينتظم حوله كل شيء

---

(1) المرجع السابق، ص284.

(2) فرانسوا شاتيليه، تاريخ الأيديولوجيات، ص290.

ولكنه يتموج حسب المدارس، فالبحث عن النقاء العرقي يقتضي جهازاً مدلولياً متزايد التعقيم دائماً[1].

ولعل التنظيرات العنصرية التي بدأت عند الأنجلوساكسون لم تجد أي حرج عند ممارسة البيض العدوانية ضد غيرهم من الهنود الحمر أو الأفارقة وحتى مع العرب والمسلمين المهاجرين إلى أوروبا في العصور الحديثة، ومن الملاحظ أن الأنجلوساكسون دمجوا بين الديني والعرقي والسياسي، واستناداً على ذلك مارسوا شن الحروب ضد العرب والمسلمين في أوقات متعددة، ونعتقد أن زرع الكيان الصهيوني في فلسطين ومن ثم الحروب التي شُنت على العراق والبلدان العربية والإسلامية ليست سوى ترجمة لذلك التمازج في النظرية العرقية الأنجلوساكسونية بين السياسة والدين والعرق.

النظرية العنصرية النازية:

صحيح أن أول من صدر الفكرة العنصرية هو كتاب التوراة وكتاب التلمود، ولكن علماء الاجتماع الأوروبيون هم أول من رسّخ الفكرة العنصرية وتابعوها حتى هذه الأيام.

ويبدو أن المهاجرين أو الفاتحين أو الغازين من الأنجلوساكسون لم يحملوا معهم إلى أمريكا إلا هذه النظرة العرقية العنصرية التي تحت ظلها أبادوا الهنود الحمر واستعبدوا الأفارقة.

لننظر إلى ما يقوله عالم الاجتماع الفرنسي آرثر دي جو بينو:

إن الجنس البشري يمثل هرماً قاعدته العريضة هي الجنس الأسود، ثم يليه الملونون وفقاً لدرجة لونهم، وأما قمة الهرم فهي الجنس النقي الأبيض وهو الجدير بالسيادة وقيادة العالم.

وقد قال أحد تلاميذه في ذلك الوقت: إن هذه النظرية ستقود العالم لحرب لا تبقي ولا تذر.

---

(1) نفس المصدر السابق.

والواقع أن صعود النازية في ألمانيا كان الترجمة الحقيقية لقمة النظرية العنصرية.

ومنذ بروز هتلر على الساحة الألمانية دفع الفلاسفة والعلماء الألمان لتكوين أضخم نظرية عنصرية عرفها التاريخ.

بدأ تكوين الفكرة النازية استناداً على مشكلة اقتصادية بعد الحرب العالمية الأولى وخسارة ألمانيا، وبدا أن هناك تذمراً شديداً في أوساط الألمان فتأسس حزب العمال الألمان من ستة أشخاص كان لبعضهم الدور المهم في ظهور النازية كنظرية عنصرية قادت ألمانيا إلى شن حروب لم تتوقف.

ومن أهم فلاسفة النازية جو تفريد فيدر وروزنبرغ، وقد وضع مؤسسو هذا الحزب المبادئ الأولى للنظرية النازية وهي سبعة:

1 ـ التضحية بكل شيء في سبيل اجتذاب الأغلبية الساحقة إلى الحركة.

2 ـ الإيمان بأنه لا يمكن إنشاء الأغلبية نشأة قومية إلا برفع مستواها الاجتماعي.

3 ـ مواصلة الجهود لإعادة تكوين الشعب الألماني على أساس قومي.

4 ـ الإدراك بأنه لا يمكن كسب ثقة الشعب إلا بعد مساعدته لتخطي العقبات التي تقف في طريقه.

5 ـ الحفاظ على صفاء العرق.

ويهمنا ما تركز في إحياء الجانب القومي الألماني وقضية صفاء العرق.

وكان أهم ما ركّز عليه آباء النازية الهجوم الإعلامي على السامية والشيوعية وعندما أصبح الحزب برئاسة هتلر صاغ مبادئه وركّز فيها، وخاصة في المادة الرابعة والثامنة على من هم الألمان الخلّص، وما الشروط التي يجب أن تتوافر فيهم.

ويرى الحزب أنه بعد أن يكون الشعب الألماني قد اطمأن على نفسه من الناحية العرقية يجب أن يحكمه زعماء مستعدون لكل تضحية في سبيل تحقيق برنامجهم.

وقد وضع الحزب النازي المبادئ العنصرية في مقدمة برنامجه السياسي وهذه المبادئ تعد تمجيد العنصر الألماني والتعريف بقيمة رسالته أمراً جوهرياً ومن

المعروف أن فكرة التفوق العنصري الآري لم تكن فكرة ألمانية حديثة بل تمتد جذورها إلى فلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وقد تأثر هتلر بهم، وتبنى وجهات نظرهم في كتاب كفاحي ومنهم فريدرك ليستْ، وآرثر جو بينو، الذي أشرنا إليه في السطور السابقة، وريتشارد فاغنر، وفريدريك نيتشه صاحب نظرية الإنسان السوبرمان، أو الإنسان الإله، وأوستين تشمبرلن أول دعاة الجامعة الألمانية التي تبناها جورج شوبنير وكذلك فيخته وليوبون، وشوبنهور ولورد نورث إلفي، وملخص نظرياتهم التي تؤمن النازية بها هو التفوق العنصري للشعب الألماني، وبحق الزعامة للمواطن الألماني المحافظ على سلالته الآرية والذي تجنب الاختلاط بالعناصر المتسللة. ويعتبر ألفريد روزنبرغ صاحب كتاب أسطورة القرن العشرين هو المؤسس الحقيقي للنظرية العنصرية[1].

وترى النازية أن سبب نكبات ألمانيا هو تسلل العناصر السامية إليها واندماجها بالآريين.

ومن المؤكد أن النظرية النازية صنفت جميع الشعوب إلى أصناف وجعلت اليهودية الأرثوذكسية أدنى تلك الأصناف فتعاونت الحركة الصهيونية والحركة النازية على إرهاب اليهود الأرثوذكس لدفعهم إلى الهجرة واحتلال فلسطين، وقد طبقت النازية نظريتها أيضاً على الشعوب السلافية والإنجليز والفرنسيين وراحت تعمل لسيادة الجنس الألماني على بقية الشعوب، وكان من نتيجة ذلك الحرب الكونية الثانية التي راح ضحيتها أكثر من 40 مليون إنسان.

النظرية العنصرية الصهيونية:

عندما ندرس العنصرية الصهيونية فإننا ندرس حالة عنصرية مستمرة مستجدة في الكيان الصهيوني والحركة الصهيونية العالمية.

---

(1) نيرمين سعد الدين إبراهيم، صعود النازية، ص24 ـ 25.

لن نعود لدراسة النصوص التوراتية التي تقول بنظرية الشعب المختار، فهذا أمر أصبح يدركه الجميع، وإضافة لذلك فإن النصوص التلمودية ليست أقل خطراً من التوراة من حيث العنصرية الفجة.

مع ذلك فإن نشأة الصهيونية كحركة عنصرية لم تتبلور إلا بعد أن استندت إضافة لتفسير النص الديني على ما طرحته النظرية النازية في ألمانيا، وما طرحته الأنجلوساكسونية بعد استقرارها في القارة الجديدة أمريكا.

أما الأساس الفلسفي للعنصرية الصهيونية فهو أساس غربي أوروبي، فكما أنتجت الحضارة الأوروبية النازية والأنجلوساكسونية والفاشية، أنتجت الصهيونية أيضاً.

تقوم النظرية على أساس أن اليهود يشكلون أمة واحدة استثنائية استناداً على مقولة شعب الله المختار. وقامت هذه الفلسفة على أن اليهود هم الشعب الأنقى والأفضل من جميع البشرية.

يقول المفكر الصهيوني موسى هس 1812 ـ 1875م في كتابه روما والقدس: إن العرق اليهودي حافظ على وحدته رغم التأثيرات المناخية عليه، كما حافظت السمة اليهودية على نقاوتها عبر العصور[1].

ويقول: لم يكن تاريخ الإنسانية السابق بأكمله يتحرك إلا ضمن دائرة الصراعين الطبقي والعرقي، والصراع العرقي هو الأساس في حين أن الصراع الطبقي هو الثانوي[2].

ويقول ليو بنسكر 1821 ـ 1891م: إن الشخص الذي لا يقول إن الشعب اليهودي هو شعب الله المختار لابد أن يكون أعمى.

ويقول: إن اليهود ينتمون إلى عرق متقدم وليسوا زنوجاً.

---

(1) الفكرة الصهيونية النصوص الأساسية، ص23، مركز الأبحاث، بيروت، 1970.

(2) المصدر السابق.

ويقول هرتزل: نحن شعب واحد، وإذا ما أقيمت دولة (إسرائيل) ستكون عبارة عن حصن منيع للحضارة في وجه الهمجية[1].

أما ماكس نورداو فيقول: اليهودي يتمتع بمهمة كبيرة ومواهب عالمية تفوق أي أوروبي عادي، ناهيك عن تلك الشعوب الآسيوية والإفريقية الخاملة[2].

ويقول ناحوم سوكولوف: لكن اليهود دون ريب أنقى أمة بين أمم العالم المتمدنة تتجلى في صراع عنيف من أجل الوجود في توحيد يهود جميع البلدان بغض النظر عن مستوى الثقافة والانتماء الحزبي[3].

وإذا عدنا إلى تعريف العنصرية حسب دائرة المعارف البريطانية (الأنسكلوبيديا) فإن العنصرية هي النظرية أو الفكرة القائلة بأن هناك علاقة سببية بين الصفات الجسدية الموروثة أو بين صفات معينة تتعلق بالشخصية أو العقل أو الثقافة، يضاف إلى هذا فكرة أن بعض الأعراق هي متفوقة على أعراق أخرى بصورة وراثية.

إن تعبير العنصرية ليس مرتبطاً بالضرورة بالتفريعات البيولوجية أو الأنتروبيولوجية للعرق الذي هو تقسيم فرعي للنوع، وغالباً ما يجري سحب الأفكار العنصرية بلا تمييز على مجموعات غير بيولوجية وغير عرقية مثل الطوائف الدينية والأمم والمجموعات اللغوية والمجموعات الإثنية أو الثقافية.

فتقييم الفكر الصهيوني على ضوء هذا التعريف العلمي للعنصرية يقود إلى الإعلان قولاً واحداً: إن الصهيونية هي العنصرية بتراثها وهي أوقح عنصرية في التاريخ الحديث والمعاصر.

وعندما برزت النازية استفادت الصهيونية جداً من نظرياتها العنصرية.

لقد وجد الصهاينة أن هناك تشابهاً بين النظرية العنصرية الألمانية والنظرية العنصرية الصهيونية؛ لأن كلتا الحركتين قامتا على أساس أن العالم يشتمل على أمم

---

(1) ثيودور هرتزل، الدولة اليهودية.

(2) الفكرة الصهيونية النصوص الأساسية، الصهيونية نظرية وممارسة، 1974، ص187.

(3) ناحوم سوكولوف، تاريخ الصهيونية نقلاً عن الصهيونية نظرية وممارسة، ص34.

مختلفة في حالة نزاع دائم، وأن الأمم الراقية يجب أن تسيطر على مصائر الأمم الأخرى، وتهيمن على ثرواتها وبلدانها، ويرى بعض القادة الصهاينة ومنهم دافيد كمسحي: أنه لولا صعود النازية وما ارتكبته في حق اليهود لما كانت الحركة الصهيونية قادرة على تجميع العدد الكافي لتشكيل دولة، ولولا مساعدة المسؤولين النازيين ما كان من الممكن إنجاز إلا القليل في هذا المجال.

ولأن الأفكار العنصرية مشتركة فقد التقى الاتحاد الصهيوني مع النازيين وبدأ الحديث عن نقاء الدم يترسخ في البيان الذي أصدره (بلومنفليد) في نيسان عام 1933 ويقول فيه: إن اليهود في الماضي كانوا يقبعون وراء تمايزهم المثبت بالدم عن الألمان، وقد حصل الاتحاد الصهيوني على حماية هتلر وحكومته ليس مرة واحدة وإنما على نحو دائم بعد عام 1933.

والتحالف النازي الصهيوني لم يكن ظاهرة تكتيكية ولم يكن وليد المصادفة بل كان تحالفاً إستراتيجياً خاصة أن الصهيونية تعد الوريث الشرعي للفكرة النازية أي فكرة التفرد القومي[1].

وقد أدان العديدون من اليهود المفكرين والباحثين العنصرية الصهيونية، ومنهم البرفسور إسرائيل شاحاك المعروف بمعاداته للكيان الصهيوني وعنصريته.

يقول شاحاك في كتابه (عنصرية دولة إسرائيل) الذي نشره أواخر عام 1975 في فرنسا وتحديداً في الصفحة 267، وعنونه بـ النازية:

إنني لا أخشى من تشبيه الوضع في (إسرائيل) بالوضع في ألمانيا ما بين الحربين العالميتين، وأنا لا أخشى من القول بأن يهود إسرائيل ومعهم غالبية يهود العالم يمرون حالياً بمرحلة من النازية، وأنا لا أقصد الذين يعيشون بيننا والذين أعتقد أنهم نازيون حقيقيون بكل ما في الكلمة من معنى بل كل من لا يحتج ضد النازيين اليهود أيضاً.

---

(1) صالح زهر الدين، الخلفية التاريخية لمحاكمة روجيه غارودي، ط1، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت 1998، ص82.

وكذلك فعل عالم الاجتماع اليهودي الفرنسي الذي ألف كتاباً بعنوان: (إسرائيل واقع استعماري) وأكد فيه المضمون العنصري للصهيونية حين يقول:

إن الانسياق مع الفكر الصهيوني يقود إلى الإعلان أن هناك نفراً معيناً من الناس على حق في كل الأحوال وهو النفر الذي ننتسب إليه وهو هنا حسب المعايير المناهضة للسامية وحسب الصهيونية جماعة اليهود، ومثل هذه القناعة بعصمة رهط الإنسان العنصري ظاهرة متواترة في تاريخ الجماعات الإنسانية وهي تُدعى العنصرية[1].

وتطبيقاً لهذه النظرية العنصرية فقد قام الصهاينة بالتسرب إلى فلسطين وطرد أهلها منها، وإجراء المذابح الجماعية بحق العرب في القرى الفلسطينية تماماً مثلما فعل الأنجلوساكسون في أمريكا، حيث الاستيطان والإبادة للسكان الأصليين أو الطرد لمن تبقى منهم.

وفي المحصلة فإن النظريات الثلاث الأنجلوساكسونية والنازية والصهيونية هي نتاج الفكر الغربي بامتياز وليست نتاج الشرق وفكر الشرق، وهذا يعني أن الكوارث البشرية الناجمة عن هذه النظريات ستظل قائمة بفضل وجود آخر نظرية عنصرية وهي النظرية الصهيونية.

لقد أبادت النظرية الأنجلوساكسونية عشرات الملايين من الهنود الحمر واستعبدت عشرات الملايين من الأفارقة، وأبادت النازية مدناً بأكملها وقتلت قواتها وجيوشها عشرات الملايين من الروس والبولونيين والغرب عموماً.

وها هي العنصرية الصهيونية تبيد الشعب العربي الفلسطيني، وهي تهيئ نفسها لإشعال حرب عالمية ثالثة، يُباد بواسطتها البشر والمدن والنباتات وكل ما يدب على وجه الأرض.

---

(1) مكسيم ردونسون، إسرائيل واقع استعماري، ترجمة إحسان حقي سورية، دمشق، وزارة الثقافة، 1967م.

النظرية الإسلامية الإنسانية العالمية:

رأينا في الصفحات السابقة كيف أنتجت الثقافة الغربية النظريات العنصرية ورأينا ما هي نتائج ممارسة هذه النظريات، والسؤال المطروح علينا جميعاً هو هل أنتج الشرق نظريات عنصرية؟.

ماذا نعني بالنظرية الإسلامية الإنسانية العالمية؟.

ما هي الأسس الدينية التي استندت عليها نظرة الإسلام لكل البشر؟.

ما هو السلوك الإسلامي عبر العصور تجاه بقية الشعوب؟.

وإذا كان المستند التوراتي مستنداً عنصرياً اعتمد على مقولة شعب الله المختار، فإن ما يناقضه تماماً المفهوم الإسلامي المستند إلى النص القرآني الصريح.

فالقرآن الكريم نص إليه يضع القوانين الصالحة لخير البشرية حتى نهايتها.

وإلى جانب هذا الكتاب العظيم توجد سنة نبوية متواترة خالدة على الرغم مما دُسَّ عليها.

وهناك تراث إسلامي فكري وديني، يمتد إلى قرون عدة مازال حياً ويفعل فعله في عقل الإنسان وسلوكه.

طرح القرآن الكريم مفهوم العالمية الإنسانية كمجال مفتوح على الشعوب كافة دون إلغاء أحد، أو إلغاء الهويات والشخصيات.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾. (الحجرات: 12).

فطبيعة العلاقة البشرية تقتضي وجود الأمم والشعوب والقبائل، لا وجود لشعب واحد وأمة واحدة، وهذا الوجود خُلق ليكون هناك تلاقح في الثقافة بشتى أنواعها الفلسفية والأدبية، وفي العلوم بشتى مناحيها الطبية والفلكية والرياضية وغيرها، وهناك تجاذب في المفاهيم والأفكار، والنتيجة هي أن الإنسانية جمعاء تتجه نحو الإنتاج الفكري والمادي الذي فيه سعادة الجميع، وليس سعادة طرف على حساب طرف آخر.

لقد طرح القرآن الكريم مفهوم العالمية الإنسانية بدءاً بمفهوم رب العالمين، وقد ورد هذا المفهوم في أكثر من ستين موقعاً في آيات القرآن الكريم، وهذا الإله ليس خاصة لبني إسرائيل أو للعرب أو حتى للمسلمين، فهو رب العالمين، رب كل مخلوق، وهو مدبر الكون والبشر ومطلوب من البشرية أن تتجه نحوه، فهو الكلي المطلق ليس إلهاً لأحد دون الآخر، فلا تمايز في أصل العبودية ولا فرق بين الناس في طبيعة الخلق ولا فرق بينهم في طبيعة توجههم نحو الإله الواحد، وعندما تعرض القرآن الكريم لكيفية تحقيق العالمية الإنسانية وضع أسساً ثابتة للتعامل البشري، وهذه الأسس تقوم على احترام الإنسان للإنسان، احترام عقله وعاطفته ومشاعره وطموحاته النافعة، وتقوم على أساس احترام الحوار البناء الذي يخلق تفاعلاً إيجابياً بين الخلق.

إن الآية الكريمة التي أوردناها من سورة الحجرات تقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.

فكيف يمكن أن تصح النظرية العرقية النازية التي ترفع عرقاً فوق العروق، وكيف يمكن أن تصح النظرية الأنجلوساكسونية القائلة بتفوق العرق الأبيض على الأسود، والأصفر والأسمر، وكيف تصح نظرية شعب الله المختار الصهيونية.

الجميع مخلوقون من ذكر وأنثى، والجميع جعلهم الله شعوباً وقبائل وأمماً، وغاية الجميع التي وضعها عز وجل هي التعارف وليس التنافر وتسلط واحد على آخر، أو أمة على أمة أو شعب على شعب.

يقول تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾. البقرة: 213.

فالآية توضح بشكل دقيق أن الله خلق البشر أمة واحدة، وبعث الأنبياء وأنزل معهم كتاب الله الذي يصلح للجميع، لكن البشر هم من اخترعوا الاختلاف واختلقوا التفاوت والعنصرية ليبغوا على بعضهم بعضاً.

فمن اخترع العنصرية النازية؟ ومن اخترع العنصرية الصهيونية؟ ومن اخترع نظرية تفوُّق العرق الأبيض على غيره؟.

أليس البشر من اخترعوا هذه النظريات ليكون البغي والاعتداء مكان المساواة والتصالح والتعارف؟.

وهناك العشرات من آيات القرآن الكريم التي تشكل نظرة إسلامية إنسانية متكاملة، لا تفرقة فيها ولا تفاضل في الحياة الدنيا والسلوك الدنيوي من غنى وفقر ولون ولغة وأصل وجغرافيا.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾. النساء: 1.

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. هود: 118 ـ 119.

اختلاف الناس أمر طبيعي حتى يتحقق ميزان العدل ويمحّص الخبيث من الطيب، ولكن الاختلاف في اللون واللغة والجغرافيا والدين ليس مدعاة للادّعاء بأن أحداً أفضل من الآخر، وليس سبباً يُتَّخذ حجة لنظرية عنصرية، أو لنظرية التفوق كما ادّعى أصحاب النظريات العنصرية.

النظريات العنصرية والمنهج الإسلامي والإنساني:

النصوص المقارنة والتطبيقات:

تطبيقاً لكل نظرية إن كانت عنصرية أو غيرها، لابد أن نرى في البداية نوعاً من التراكم الفكري لكل نظرية، وهذا التراكم هو الذي يفصح عن النظرية وتطبيقاتها، وهناك من مظاهر التطبيق الكثير، وهي بشكل عام تحقيق لما ورد في أي نظرية، من نظرات للآخر وللذات وسلوكيات ذاتية وأخرى تجاه الآخر، وأهم هذه النظرات وتطبيقاتها:

1 ـ تحريم حق الحياة، أي إباحة القتل بتشريع ديني أو فلسفي.

2 ـ تحريم حق اختيار العقيدة، أي محاربة أي عقيدة تخالف عقيدة النظرية.

3 ـ تحريم الحريات، ومنها حرية الدين، حرية التعبير، حرية المرأة.

4 ـ تحريم التعامل الخيّر مع من يخالف أصحاب النظرية.

5 ـ تحريم الاختلاط، في الزواج، في التعليم، في العمل، وما إلى ذلك.

6 ـ تحريم التعامل التجاري والمالي إلا بشرط المنفعة الأحادية.

7 ـ تحليل الرق والاستعباد.

8 ـ تحليل الضرر بالآخرين بكل الوجوه.

9 ـ تحليل سرقة الأغيار وسلبهم أموالهم وممتلكاتهم وأراضيهم.

10 ـ تحليل اغتصاب الأمم والشعوب المغايرة.

عندما نطالع نصوص التوراة وشروحاتها التلمودية نرى بكل صراحة فجّة الدعوة إلى القتل وإنهاء الحياة بكل الوسائل، وتصبح هذه النصوص المؤلفة مقدسة يجب تطبيقهامن قبل الذين يؤمنون بها.

وحسب ما ورد في التوراة العبرانية فإن هذه النصوص طبقت عملياً على الأرض وظهرت في عدة أسفار من هذا الكتاب.

جاء في سفر التثنية: (**وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبقِ منها نسمة ما، بل تحرمها تحريماً، الحثيين والأموريين، والكنعانيين والفرزيين والمؤابيين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك**). تثنية 20: 10 ـ 17.

وجاء في سفر الخروج: (**احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آتٍ إليها لئلا يصير فخاً في وسطك**). خروج، الإصحاح: 12.

وجاء في سفر العدد: (**اقتلوا كل ذكَرٍ من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكَر اقتلوها، لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر ابقوهن لكم حيات**). العدد 31: 17 ـ 18.

وجاء في سفر صموئيل الأول: (**فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ماله ولا تعفِ عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة وطفلاً ورضيعاً بقراً وغنماً جملاً وحماراً**). 15: 3.

وقد وردت نصوص في كتاب التلمود تحث على القتل بوسائل كثيرة ويعتبرها الصهاينة شرحاً لقوانين التوراة، وهي في غاية العنصرية.

جاء في سنهدرين: (**من العدل أن يقتل اليهودي كل كافر لأن من يسفك دم الكافر يقرب قرباناً لله**).

وقال ميمانود: (**إنه يلزم قتل الأجنبي لأن من المحتمل أن يكون من نسل السبعة شعوب وعلى اليهودي أن يقتل من تمكن من قتله فإذا لم يفعل ذلك يخالف الشرع**).

ولا يُعد قتل غير اليهود جريمة بل هو فعل يرضى الله عنه.

وجاء في التلمود: (**اقتل الصالح من غير الإسرائيليين ومحرم على اليهودي أن ينجي أحداً من باقي الأمم من هلاك أو يخرجه من حفرة يقع فيها لأنه بذلك يكون قد حفظ حياة أحد الوثنيين**).

ومن المفروض عند اليهود قتل كل من خرج عن دينهم وخصوصاً المسيح والناصريين لأن قتلهم من الأفعال التي يكافئ الله عليها، وإذا لم يتمكن اليهودي من قتلهم فمفروض عليه أن يتسبب في هلاكهم في أي وقت أو على أي وجه[1].

فهذا غيض من فيض مما جاء في كتابي التوراة والتلمود من نصوص تؤسس عليها النظرية العنصرية الصهيونية.

أما التطبيقات لهذه النصوص فهي تحتاج لمئات الصفحات، وقد رصدت كتبٌ كثيرة جرائم الصهاينة ضد أبناء الأمم وخاصة أبناء الشعب الفلسطيني، فهناك قتل أفراد وهناك قتل جماعي وحروب إبادة، وكما قلنا فالشواهد بالمئات

(1) صالح محمود صالح، الإنسانية والصهيونية والتلمود، ص26 ـ 27، منشورات فلسطين المحتلة، دون تاريخ.

ومنها مجزرة ديـر ياسـين، وكفـر قاسـم، وصـبرا وشـاتيلا ومجـازر الحـرم القـدسي الشريف، والحرم الإبراهيمي.

وهناك تطبيقات أخرى للقتل من قبل المستوطنين وهـي تمثـل أبـشع صـورة للعنصرية اليهودية الصهيونية.

وتطبيقاً لتلك النصوص فقد قتل أطفـال فلـسطينيون بالمئـات، وقُتـل شـبان وكذلك نساء وفتيات بأسـاليب في غايـة العنـصرية والدمويـة، ومواقـع الإنترنـت وكذلك الكتب التي تناولت هذه الجرائم متوفرة وعديدة ولم تعد تخفى على أحد من أبناء الشعوب.

أما النظريـة العرقيـة الأنجلوساكـسونية فـلا تقـل عنـصريتها عـن عنـصرية الصهيونية وتشير الوثائق إلى أن البيض عندما أخذوا يغزون أمريكا الشمالية وضعوا مخططات لإبادة الهنود الحمر، إمـا بالقتـل الجماعـي وإمـا بنـشر الأمـراض الفتاكـة كالجدري، وتقول الإحصاءات الأخيرة إن عدد من قُتل من الهنود الحمر بلـغ 114 مليون إنسان.

وليس المخطط الإبادي الأنجلوساكسوني إلا تطبيقـاً لتنظـيرات العنـصريين البروتستانت، أمثال جون كالفن الذي تشدّد جداً في قوله بأفضلية العـرق الأبـيض على غيره من العروق والشعوب، ودعا إلى إبادة الـشعوب الأخـرى التـي اعتبرهـا متخلفة ودون البشر.

وفي التطبيقات الأنجلوساكسونية في أمريكا كانت أبـشع الأسـاليب ممارسـة للإرهاب ضد الهنود الحمر، وقد شملت هذه الممارسة الإرهابية قبائـل عديـدة مـن الهنود مثل الآباشي، والكوماتشي، السيو، التشيبو، الشيروكي، الأبامـا، الـسيمنول، الميسوري، الكينواوا، وغيرها.

من المعروف أن الهنود الحمر هم السكان الأصليون لأمريكا، وقـد تعرضـوا خلال خمسة قرون لحروب إبادة وتدمير لكل حضاراتهم ومرتكزات مجـتمعهم مـن

قبل الأنجلوساكسون، وتروي بعض المصادر أن من تبقى من الهنود لا يتجاوز المليون إنسان من أصل 114 مليون.

كان الأنجلوساكسون يعاملون الهنود الحمر معاملة ثيران المسك والبافلو. وقد تمت حروب إبادة للهنود الحمر بتدمير شتيلان عام 1521، وإفناء شعبها، ثم يشهد عام 1522 تأسيس نظام الأنكوميدا والذي مُنح بموجبه كورتيز المستعمرين الإسبان الحق في اقتضاء العمالة من أراضيهم من الهنود ليصبحوا أرقاء في أرضهم، ويقوم خليفة كورتيز عام 1528 ببيع آلاف الهنود في أسواق الرقيق.

وقد شهد العالم رهائن الكابتن فتزوري الذي نقل أسراه الهنود إلى لندن في عام 1830 رمزاً لانتصار الإرهاب على السكان الأصليين.

وتأتي مذبحة أرض النار لتكون نتيجتها أن من بقي من الهنود الحمر في عام 1850 فقط ثلاثة آلاف وخمسمائة هندي وليصبح عددهم في عام 1950 أقل من 40 شخصاً حسب إحصائية حفظ البيئة التي تعنى بالحيوانات التي يهددها الانقراض[1].

يقول روي هارفي بيرس: إن تاريخ الوحشية في أمريكا منذ بداية تكوينها كان هو تاريخ المتحضرين.

ويقول وليم شيرمان عن هنود السيو: يجب أن نتصرف بإخلاص للشدة ضد السيو حتى إبادتهم رجالاً ونساءً وأطفالاً، ولا يجب أن يسمح بوصول فكر آخر لجذور هذه القضية.

ويقول في رسالة لشقيقه: إن الأكثر الذي يمكننا قتله هذا العام يعني الأقل الذي سنقتله العام القادم، حيث المزيد الذي أراه من هؤلاء الهنود يقنعني أكثر بأنهم يجب أن يقتلوا.

فالقتل هدف سامٍ عند الأنجلوساكسون الذين يدّعون الحضارة[2].

---

(1) خليل إبراهيم حسونة، الإرهاب الأمريكي، الدار الجماهيرية، ليبيا، 1986، ط1، ص29.

(2) المرجع السابق، ص30.

لقد كانت الكنيسة والتي من المفترض فيها الوعي بقضية الإنسانية ـ لأن السماء لا تفرق بين أحد ـ في توظيف المذهب المسيحي البروتستانتي ضد الهنود، فنجد المبشرين دعاة النهب ومبشري المسيحية يقولون في صلواتهم عن الهنود إنهم مجموعة من أوسخ وأحقر المخلوقات، فهم متخلفون ولصوص وكذابون ومتسللون وقتلة وعديمو الشرف وعديمو الإخلاص وآكلوا أعصاب سمح لهم الرب بتلويث الأرض والذين تجب الصلاة من أجل نهايتهم.

وقد بلغ الإرهاب الأنجلوساكسوني قمته عام 1840 حتى كان يدفع في ولاية يتهواوا مبلغ مائة دولار عن كل فروة رأس من الذكور الهنود الأباشي، وخمسين دولاراً لكل فروة رأس من الإناث، وعشرين دولاراً لكل فروة رأس طفل[1].

أما الإرهاب الأنجلوساكسوني ضد الزنوج فهو لا يقل خطورة ودموية عن الإرهاب ضد الهنود الحمر.

فمن المعروف أن أمريكا تحوي من كافة الأعراق والأجناس، وفيها من الملونين ما يقارب الأربعين مليوناً، منهم حسب إحصائيات القرن الماضي خمسة وعشرون مليوناً من الزنوج الأفارقة.

وتعتبر مشكلة الزنوج أهم مشكلة يعاني منها المجتمع الأمريكي، فكما هو معروف أن قانون 1787 في ولايات الشمال يعتبر الزنجي من المقتنيات ووسائل الحرث في الزراعة، وفي ولايات الجنوب الأمريكية كان القانون أفظع وأقسى، فالأسود يعتبر كالحيوان إذا ما ضاع أو فرّ يجب إعادته إلى مالكه.

وتشير المصادر إلى أن الآلاف من الأفارقة قد غرقوا أو أُغرقوا في مياه البحار أثناء تقييدهم واستعبادهم وتسفيرهم إلى أمريكا، حيث لاقوا هناك أشد أنواع التعذيب والاضطهاد.

---

(1) سالم إبراهيم بن عامر، ضحايا ومحارق في محراب ربة الإرهاب، ط1، 1982، ص44.

ويجدر بنا أن نشير بشكل موجز جداً إلى أن العنصرية الأنجلوساكسونية خلّفت منظمات عنصرية خطيرة في الولايات المتحدة تقوم نظرياتها على العداء السافر لكل الملونين، ومن هذه المنظمات منظمة لوكلاكس كلان، والمافيا الجديدة، والماسونية، وبعض التنظيمات العنصرية الأخرى.

تطبيقات النازية وممارستها:

لاشك أن النازية التي ابتدعها مفكرون ألمان كثر وجدت من يطبقها تطبيقاً دموياً واسعاً، وقد مثل ذلك هتلر عندما أعلن الحرب على بعض الدول الأوروبية وجرَّ على أوروبا والعالم حرباً عالمية قاسية أودت بعشرات الملايين من البشر، ولكن ماذا بشأن التطبيقات العنصرية ضد الشعوب؟.

في البداية نقول: إن ادعاءات الحركة الصهيونية بأن النازية أبادت ستة ملايين يهودي هي كذبة كبرى أكدها الكثيرون من المفكرين والسياسيين الغربيين ومنهم يهود، فما يُسمى المحرقة ليس إلا اختراعاً صهيونياً، ولولا هذا الاختراع لما استطاعت الحركة دفع يهود أوروبا وألمانيا بالتحديد للهجرة واحتلال فلسطين.

من المعروف أن يهودياً بولندياً قام باغتيال السفير الألماني في باريس ويدعى آرنست فون رات في 7/ 11/ 1938، وقد جرّ ذلك قيام ثورة شعبية في ألمانيا ضد اليهود وكان أقسى ما يمكن أن يلاقيه اليهود اعتقال عدد منهم وطرد الآخرين، أما ما قيل عن الملايين من اليهود الذين أبيدوا حسب زعم الحركة الصهيونية فهو مجرد خرافة وتضليل.

ومع ذلك نقول إن النظرية النازية وضعت اليهود والغجر والسلافيين في صف واحد ومرتبة واحدة، فالاضطهاد شمل الكثير من الأمم والشعوب وليس اليهود فقط.

إجراءات التخلص من سلالات الشعوب غير الآرية كانت تسير بالتساوي، فقد أبيدت قبائل من الغجر كاملة وكانت هذه الإبادة للغجر مدرجة في صلب برنامج ألمانيا النازية.

وبحجة أن الغجر غير اجتماعيين جرى تأسيس مكتب لفحص خصائصهم العرقية، ورأوا أنهم من ذوي دماء أجنبية وليسوا آريين، وقد جرى تعقيمهم لأنهم يمثلون خطراً على الفلاحين الألمان، وصدر قرار وصف الغجر بأنهم مجرمون معتادون على الإجرام.

على جبهة أخرى قام النازيون بإبادة الملايين من الشعوب السلافية أو حرمانهم من التكاثر لأنهم غير آريين.

وقد جرى أيضاً عد الأقزام والزنوج من الأقليات التي يجب التخلص منها لذلك قامت حركة كبيرة لتعقيمهم وإبادتهم.. والزنوج كانوا الضحية الأولى للقوانين العنصرية النازية وخاصة في إقليم (رينانيا) لأن هؤلاء هم من آباء زنوج فرنسيين وأمهات ألمانيات، فقامت الحكومة الألمانية بتعقيمهم وإبادة قسم كبير منهم[1].

المنهج الإسلامي الإنساني وتطبيقاته، كيف نظر الإسلام لجريمة القتل:

مرّ معنا خلال الصفحات السابقة نظرة كل من العنصريات الأنجلوساكسونية والنازية والصهيونية التلمودية لمسألة القتل وغيرها من المسائل وعرفنا من خلال النصوص الدينية والوضعية أن هذه العنصريات أباحت القتل للأغيار وطبقته في ميادين الحروب والاحتلالات.

وهنا نصل إلى المقارنة بين هذه النظريات والنظرية الإسلامية القائمة على آيات الكتاب المبين والسنة الشريفة وتطبيقاتها على أرض الواقع.

---

(1) نيرمين سعد الدين إبراهيم، صعود النازية، ص209.

فالإسلام شرّع حقوق حفظ حياة الإنسان وشدّد على منع الأذى قبل أن يشدّد في العقوبات، فللإنسان كرامة يستحقها بصفته الإنسانية بقطع النظر عن جنسه ولونه ومعتقده وسائر الاعتبارات الاجتماعية، وهي كرامة تلازمه حياً وميتاً.

وقد قرر الإسلام عقوبة القتل عمداً بالقتل إلا إذا عُفي عن القاتل من قبل أهل المقتول، لكنه فتح أبواباً عديدة للعفو فيما دون ذلك، فالذي آذى شخصاً بجسده يعوض له إما بالمال، أو بغير ذلك من التعويض.

ولكن الإسلام شرّع في الأساس القصاص وهو معاملة الجاني بمثل اعتدائه فالقصاص معناه المماثلة.

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾. النحل: 126.

ويقول تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾. البقرة: 194.

ويقول تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾.المائدة: 32.

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. الإسراء: 33.

ومن الملاحظ أن الآيات الكريمة تركّز على قتل النفس أياً كانت، فأي نفس بشرية هي نفس وحرام قتلها بغير حق، وهذا المنظور يخالف كل القوانين التوراتية المحرفة والقوانين العنصرية النازية وغيرها.

في الدين الإسلامي شرعٌ يحرّم القتل بكل الوجوه بغير حق، فلا يحق لمسلم أن يقتل من هو على غير دينه، إن كان بينه وبينه جيرة أو مواطنة أو عهود، المهم أن لا يكون هناك حروب ومقاتلون في ساحة المعركة.

وقد جاء في وصية الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأسامة وجيشه المتوجه لحرب الروم قوله: لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلّوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا

طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة وإذا مررتهم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له[1].

ولو قارنا هذا النص بنص توراتي محرّف لوجدنا النقيضين تماماً، فالنصوص التوراتية المحرّفة تقول: (**اقتلوا كل ذكر من الأطفال، ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة وطفلاً ورضيعاً وبقراً وغنماً وجملاً وحماراً**). صموئيل 1: 15: 3.

فأين هذا من قول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾. الممتحنة 7 ـ 8.

كيف يقرر الإسلام مفهوم الحرية:

مرّ معنا أن الاستعباد إحدى السمات في عقيدة اليهود وفي العقيدة البروتستانتية، لكن هؤلاء لم يفهموا معنى خلق الله للإنسان كل إنسان.

لننظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾. المؤمنون: 12 ـ 16.

فالإنسان كل إنسان الأبيض والأسود والأصفر ينطبق عليه قانون الخلق الذي مرّ معنا في الآيات السابقة، فلا يحق لأحد أن يستعبد، والأفضل من كان أقرب إلى التقوى، وهذه الأفضلية مقياس رباني لا يحق لفرد استغلاله ليستعبد غيره ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. الحجرات: 13.

ولقد ألغى الإسلام كل روافد الرق، ومضى على درب الحرية والتحرير حتى ساواهم بسادتهم قبل أن يعتقهم نهائياً.

---

(1) محمد الخضري، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، ص22.

وقد ألغى رسول الله (ﷺ) كلمة (عبد) من المصطلحات الاجتماعية فقال عليه الصلاة والسلام: (لا يقل أحدكم عبدي وأَمَتي وليقل فتاي وفتاتي)[1].

ويقول عليه الصلاة والسلام: (لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى).

ولننظر إلى التشريعات التوراتية المحرّفة ماذا تقول: يستعبد اليهودي ابن دينه إذا افتقر فيبيع الفقير نفسه للغني أو يقدم المدين نفسه للدائن حتى يوفي دينه، ويبقى له عبداً ست سنوات ثم يتحرر، إذا اشتريت عبداً عبرياً فست سنوات يخدم، في السابعة يخرج حراً، وإذا سرق العبري ماشية وذبحها أو أي شيء استهلكه ولم يكن في يده ما يعوض به صاحبه يباع السارق بسرقته[2].

وقد أوضحت الآيات القرآنية الكريمة أسلوب معالجة وضع المدين الذي استدان من غيره، فتكفل بيت مال المسلمين بسد دينه إذا عجز.

وفي المسيحية الغربية التي تتبع النظام البابوي أصدر البابا عام 1455 مرسوماً بابوياً يقرر سيادة النصارى الغربيين على الكفار، وهذا المرسوم أقرّ استرقاق الزنوج والهنود الحمر، وصاحبته لعدة قرون دعاية واسعة أشرفت عليها الكنيسة الغربية والأوساط المسيحية في الغرب، ومفادها أن الاسترقاق هو سبيل الخلاص للرقيق الذين غضب الله عليهم فالرق عند المسيحية الغربية لعنة من الله على هؤلاء الذين أصبحوا رقيقاً.

وحتى القديس توماس الأكويني لم يعترض على الرق بل زكّاه وحبذه وذهب إلى ما ذهب إليه أرسطو، الذي عدّ الرقيق حالة من الحالات التي خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية، وليس مما يناقض الإيمان أن يقنع الإنسان بأهون نصيب.

---

(1) رواه مسلم والبخاري وابن حنبل وأبو داود.

(2) التوراة، سفر التثنية من 28 ـ 36.

إن مسألة الاسترقاق والاستعباد لدى اليهودية وبعض الفئات المسيحية مستمدة من التراث الديني التوراتي في سفر التكوين، حيث اعتبر الاسترقاق لعنة قديمة من قبل النبي نوح على بعض أبنائه وأحفاده[1].

أما بالنسبة لحرية العقيدة والاعتقاد، فقد عُرف عن كثير من اليهود والمسيحيين آيات القرآن الكريم مراراً بحرية الاختيار العقيدي، فلا يُجبر أحدٌ على اعتناق الإسلام، وهناك طريق واحد هو طريق الحوار الحر دون أي ضغط خارجي.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾. يونس: 99.

وتطبيقاً لقوانين القرآن الكريم فقد سنَّ رسول الله (ﷺ) دستور المدينة الذي ضمن حرية العقيدة لليهود من بني عوف وبني النجار وكذلك فعل مع أهل نجران حيث نظم عهداً معهم وجعل لهم ذمة الله تعالى وعهده ألا يفتنوا عن دينهم[2].

ويذكر التاريخ العهدة العمرية التي عهد فيها لأهل مدينة القدس أن تحفظ كنائسهم وصلبانهم وكهنتهم وأديرتهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم[3].

وإذا نظرنا إلى تشريعات التوراة وجدنا أن أصحابها لا يعترفون بأي دين غير اليهودية، وموقفها من المسيحية ثابت حيث إن المسيح بنظرهم هرطيق وابن زانية.

وليس في التوراة أو التلمود ما يشير إلى حرية العقيدة ولا مجال للاختيار فإما أن يكون الإنسان يهودياً أو لا يكون يهودياً، وحينئذٍ يكون من صنف الحيوانات حسب رأي التلمود.

جاء في التلمود: **(كل خارج عن اليهودية غير إنسان ولا يصح أن تستعمل معه الرأفة).**

وجاء أيضاً أن: **(المسيح كان ساحراً، ووثنياً).**

---

(1) سفر التكوين، الإصحاح التاسع.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، المجلد 2، ص294، والبداية والنهاية لابن كثير، وغيرهما.

(3) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، محمد الخضري، ص115.

فينتج أن المسيحيين وثنيون مثله، وفي مطلع القرن الرابع الميلادي أصدر الإمبراطور الروماني قسطنطين مراسيم التسامح، ثم اعتنق المسيحية فقويت وبدأت موجة اضطهاد دموية وجهها المسيحيون لأصحاب العقائد الأخرى وشكلّوا جمعيات ثورية كان أشهرها جمعية الصليب المقدس، وقامت هذه الحركات بإبادة الرومانيين الوثنيين وقد وصفت هذه الإبادة بأنها أفظع المجازر البشرية التي سجلها التاريخ المسيحي الغربي.

ولنتذكر أن البروتستانت عندما ظهروا في باريس قتل الآلاف منهم وهم نيام عام 1672، وقد هنأ البابا وقتها ملك فرنسا على هذا العمل.

فالمسيحية عندما لونت باللون الغربي الروماني لم تعد مسيحية المسيح، بل أصبحت عقيدة أخرى تقمع الحرية، أي حرية العقيدة والمعتقد حتى أنها أكلت أبناءها من داخلها وذلك بسبب تعدد مذاهبها وتسلّط الأقوى منها على الضعيف.

بين حروب الإبادة الغربية والفتوحات الإسلامية:

قال أحد كبار المفكرين الغربيين: لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب.

إن أحداث التاريخ تقرر لنا أموراً في غاية الأهمية والخطورة، وهذه الأمور تحدد لكل باحث منصف أن يقارن بين حضارة الغرب وحضارة الشرق الإسلامي.

فالحضارة الغربية التي بُنيت على الاستعمار واستغلال شعوب العالمين الإفريقي والآسيوي عرفت حروب الإبادة في كل تحركاتها الاستعمارية منذ التصادم الأول بينها وبين الشرق إن كان ذلك في زمن الدولة العباسية، أو كان زمن الحروب الإفرنجية التي أطلقوا عليها الحروب الصليبية أو حتى الحروب المعاصرة التي بدأت مع الحرب العالمية الأولى وامتدت حتى الحرب الثانية وقيام الكيان الصهيوني الاستعماري الغربي والحروب المعاصرة في أفغانستان والعراق وغيرهما من المناطق.

ويبدو أن طبيعة النفسية الغربية جُبلت على حب القتل وحروب الإبادة التي استندت على النظرية العنصرية المقيتة.

وإذا أردنا أن نحصي ما قامت به الحضارة الغربية من حروب الإبادة لما وسعت المجلدات، لكننا سنوضح في هذه الصفحات أهم ما قامت به جيوش الغرب من مجازر وحروب إبادة، وبالمقابل سنضع الشواهد على طريق تعامل العرب المسلمين مع الشعوب التي دخلت الإسلام بسبب الدعوة السلمية إلى الدين الحنيف.

ثم لابد لنا من الاستشهاد بما قاله الباحثون والمفكرون الغربيون حول الحضارتين العربية والغربية مقارنين بينهما في هذا الإطار، أو في هذه المسألة.

شواهد من التاريخ:

مع بدء الحرب الإفرنجية شن البابا أوريان الثاني حملة تنظيرية في أرجاء أوروبا ضد الكفرة (المسلمين) وبدأت الحروب الصليبية، وبدأت معها أبشع المجازر، فعندما احتل الإفرنج القدس أجروا فيها مذبحة كبرى راح ضحيتها ما بين 70 ـ 90 ألف من العرب المسلمين، عدا المجازر الأخرى التي ارتكبوها في مناطق أخرى، وكان منها مهاجمة قوافل الحجاج المسلمين وذبح رجالهم ونسائهم وأطفالهم.

ولعل مؤرخي الإفرنج الذين عاصروا احتلال القدس لم يتورعوا ولم يخجلوا من سرد وقائع المذبحة الكبرى التي جرت بحق العرب في المدينة المقدسة.

يقول أحد مدوني الأخبار النورمانديين: عندما دخل حجاجنا المدينة ساقوا وقتلوا المسلمين، وسال الدم واعتقل رجالنا عدداً من الرجال والنساء في المسجد الأقصى وقتلوا منهم قدر ما أرادوا، وفي المسجد الأقصى ذبح الصليبيون ما لا يقل عن عشرة آلاف شخص وهذا ما يذكره شهود عيان من اللاتيين[1].

ويقول شاهد عيان آخر وهو فولهيرمن شارتر، وهو بروفانسي: تفرق الصليبيون على بيوت سكان المدينة ونهبوا كل ما وجدوه فيها.

---

(1) ميخائيل زوبوروف، الصليبيون في الشرق، ص123، دار التقدم، موسكو، 1986.

وفضلاً عن المسلمين سقط يهود القدس ضحية لجنون الصليبيين وبربريتهم، فقد اجتمعوا في كنيس كبير وفيه أبادهم الصليبيون عن بكرة أبيهم فقد أحرق الصليبيون مبنى الكنيس بمن بحث عن ملجأ فيه[1].

وفي إسبانيا وبعد انهيار القوات العربية أمام القوط الإسبان شكل الإسبان محاكم التفتيش، وكان يشرف عليها رجال الكهنوت المسيحي الإسباني وراحوا يرتكبون المجازر بحق المسلمين.

وقد عقد أهل غرناطة مع الإسبان معاهدة لتسليم المدينة بشرط أن تؤتمن حياة الناس ويرحلوا أو يبقوا في أماكنهم مسالمين، وقد أقسم فرديناند ملك القوط أنه سيكون للمسلمين مطلق الحرية في العمل في أراضيهم والحفاظ على عقيدتهم، لكن الإسبان حين دخلوا غرناطة قتلوا عن طريق الإبادة الجماعية الآلاف وطردوا الآلاف الأخرى.

وقد هدفت محاكم التفتيش إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية وبأشد الوسائل عنفاً، ولما قاوم المسلمون التنصير اعتبرهم الإسبان متمردين فأصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً خلاصته: إنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة المسلمين فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ويُعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال، وقد أحرق الإسبان المئات من المسلمين وهم أحياء، وكان يحضر حفلة إحراقهم الكهنة والقساوسة والأحبار ممثلو الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية.

وفي العصر الحديث تجلت العنصرية الغربية في البوسنة والهرسك، وأفغانستان والعراق ومناطق أخرى.

في البوسنة والهرسك: فحسب كافة الدراسات والوثائق فإن الصرب كانوا ينظرون إلى المسلمين كأعداء وكخطر على أوروبا، في بداية التسعينيات من القرن

---

(1) المرجع السابق، ص123.

الماضي صرح وزير الإعلام الصربي بقوله: نحن الصليبيون الجدد نحمي أوروبا من خطر الإسلام، إن أمام بلادنا مهمة تاريخية هي حماية أوروبا من الإسلام. وهذا أيضاً ما صرّح به قائد الشرطة الصربية في البوسنة المدعو سيمون درليكا الذي أضاف: إن ما فعلته أوروبا هو أنها وضعت بخبث جمهورية الصرب في موقف الدفاع عنها مرة أخرى ضد الإسلام.

وضمن بحثنا في العنصرية التي تبيد المسلمين سنرى حرب الإبادة وعمليات الاغتصاب التي تتقزز منها النفوس، وتدمير المساجد والجوامع والمدارس إلى آخر ما هنالك من سياسة عنصرية دموية يقوم بها الصرب والكروات ضد المسلمين.

يقول عمدة سراييفو محمد كرسفليا جوفتش: تدل الأرقام عن الضحايا حتى منتصف شهر حزيران 1993، أن عدد القتلى في العاصمة بلغ 8871، وعدد الجرحى والمصابين 52086 بينهم 16660 إصابتهم بالغة الخطورة.

وفي تقرير من بلدة كارلوفتش نقل مراسل صحافي غربي قصصاً مُروَّعة عن عمليات القتل وغيرها من العمليات الوحشية، رواها أفراد في مجموعة من أصل 1561 معتقلاً سابقاً معظمهم من المسلمين نقلهم الصليب الأحمر الدولي إلى البلدة وقال جاسمين كالتاج، 22 عاماً: إنه تطوّع عندما أعلن معسكر اعتقال كيرتيرم في تموز 1992 عن طلب أشخاص لحصد القمح فوجد نفسه يحصد الجثث.

وأضاف: أنه على مدى ثلاثة أيام دفن هو وسجين آخر جثث أطفال بعضهم لم يتجاوز عمره السنتين وشحنوا ما بين 250 و300 جثة لرجال ونساء في شاحنات من منازل عدد من القرى التي يسكنها المسلمون جنوب بريدور، وقال: كانت الجثث أمام المنازل وداخلها وكان الكثير منها خلف المنازل.

ويقول شاهد عيان آخر يدعى ميرسادسنان بيجوفيتش، 35 عاماً وهو يتحدث عما جرى ليلة 22 تموز 1992: عندما أطلق حراس صرب قنابل غاز على الغرفة التي كان يُحتجز فيها في نفس المعسكر، ثم أخذوا يطلقون النار على كل من يخرج ليستنشق الهواء، وقال: إن 125 شخصاً لقوا حتفهم و45 أصيبوا ونقلوا مع

القتلى ولم يرهم أحد بعدها، ويقول: إنني أعجز عن وصف الصراخ ليلتها، كان من بين المصابين من يتوسل كي يقتلوه[1].

تقول هدى الحسيني: المسلمون الذين يُلقى القبض عليهم أثناء القتال أو أثناء عمليات التطهير العرقي يتم تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات، المجموعة الأولى تضم المهنيين والمحترفين من أساتذة ومحامين ومهندسين ومديرين ثم وجهاء البلدة ثم الشباب والرجال الذين يتمتعون بصحة جيدة، هؤلاء في أغلب الأحيان يكون مصيرهم القتل، وإن طبقة المهنيين في البوسنة خارج حدود المناطق الممتدة ما بين سراييفو وترافنيك قد اختفت بعد عملية التطهير العرقي، وبعد قتل المجموعة الأولى فإن المسلمين المتبقين يتم تقسيمهم إلى مجموعتين الأولى يتم سجنها في ما يسمى مخيمات المخابرات[2].

وفي تقرير من البوسنة يصف الجرائم الصربية يقول: واشتهرت بعض المعتقلات باسم معتقلات الموت، حيث يستجوب رجال المليشيات الصربية المعتقلين مستخدمين كل وسائل التعذيب قبل إطلاق النار عليهم أو ذبحهم.

وذكرت صحيفة أنوفي فيسنيك الكرواتية أن أشهر هذه المعتقلات معتقل برزوفابوليا في شمال البوسنة، إذ مر عبره زهاء سبعة آلاف معتقل لم يعثر لهم حتى الآن على أي أثر.

وقد روى عدد من الجنود الصرب الذين تجري محاكمتهم بسبب ارتكاب جرائم حرب، قصصاً مروعة عن عمليات الإبادة التي يقومون بها بحق المسلمين.

قال أحدهم: أبلغنا بوجوب أن تصبح المنطقة صربية نظيفة وأن يقتل جميع المسلمين المقيمين فيها، أُمرنا بأن لا نسمح لأحد بالفرار وأن نحرق جميع المنازل حتى إذا نجا أحد من أصحابها لا يكون له مكان يعود إليه.

---

(1) جريدة الشرق الأوسط 5/ 10/ 1992.

(2) جريدة الشرق الأوسط 11/ 12/ 1992.

obeikandl.com

وروى آخر: قلنا للعائلة المسلمة بمن فيها الأطفال الثلاثة وجدّتهم: إننا لن نصيبهم بأذى، قلنا لهم لن يحصل لهم مكروه لو أنهم وقفوا جانب الجدار، وعندما وقفوا بجانب الجدار فتحنا نيران أسلحتنا، وجعلنا من أجسامهم مناخل، أتذكّر الطفلة الصغيرة ذات الفستان الأحمر وهي تختبئ وراء جدتها.

وروى ثالث: اقترح أحدنا أن نخلي سبيلهم ونسمح لهم بالرحيل ليتركوا قريتهم ومنازلهم لنا، إلا أن الأوامر الصادرة إلينا كانت مختلفة، كان علينا أن نقتلهم جميعاً؛ لأننا إن لم نقتلهم فإنهم سيرحلون ويصبحون لاجئين في مكان ما وينجبون المزيد من الأطفال، وسيحاولون في يوم ما العودة ليطالبوا بقريتهم، لذا كان المطلوب قتلهم جميعاً، ثم إنهم جميعاً كانوا من المسلمين.

ويقول: كانت التعليمات الصادرة لنا قد نصت على حرق الجثث حتى لا يبقى أي دليل على ما جرى، حرقنا الجثث، بعض الرجال المسلمين كانوا ما يزالون على قيد الحياة عندما رميناهم في المحرقة.

ويقول تقرير صدر في بداية آب سنة 1992: إن عدد الجرحى وصل حتى الآن إلى 50 ألفاً وسيصبح نصفهم مشوهين، أو عمياناً، وأضاف أحد البوسنيين وهو وزير عدل يدعى مارتين دافوج: إن لديه معلومات موثقة بأن ما يزيد على 100 ألف قد قتلوا، وأن 70٪ من المساكن والبنايات أصيب أو دُمر.

وذكرت صحيفة فيتشرني ليستْ: أن سلطات الصحة البوسنية تقدر أعداد الوفيات في الحرب في البوسنة في عام واحد 130 ألفاً، وعدد الجرحى 135 ألفاً، وأن نصفهم مصابون بإصابات خطيرة في المستشفيات البوسنية.

ويقول أحد المعتقلين ويُدعى نوفيتش: في يوم من الأيام كنا 4 أشخاص قادونا لحمل الجثث وحملناها إلى حفرة كبيرة، وكان فيها أكثر من 15 جثة، عندما كانوا يقتلون المسلمين كانوا يأخذون الموظفين من البلدية والموظفين من الإدارة

المدنية، ثم شيوخ المساجد والأطباء فيقتلونهم ليكون المجتمع الإسلامي بدون مثقفين ومتعلمين[1].

ومن التقارير التي تؤكد تحالف الصرب مع بعض الدول المجاورة، تؤكد أن صربيا تستعين بالمرتزقة من 13 بلداً، في مقدمتها رومانيا حيث تم إعداد برنامج معنوي لتعبئة نفوسهم بالحقد ضد الإسلام والمسلمين في البوسنة والهرسك.

هذه هي جرائم الصرب ضد المسلمين، وهي أحد الشواهد على التطبيقات العنصرية في أوروبا، وعندما تضج الدنيا بالكذبة الكبيرة حول المحرقة اليهودية أيام النازية لماذا لا تضج على هذه المحرقة الأبشع؟ ولماذا يسكت العالم المنافق عما يحدث للمسلمين؟ أليس ذلك يعبر عن حقد عنصري غربي على الإسلام؟. أليس ذلك تعبيراً عن عنصرية فجّة اجتاحت العقل الغربي؟.

ونتجاوز بعض فترات من التاريخ العنصري الغربي وتطبيقاته حتى نصل إلى حروب الإبادة التي حدثت في العراق وأفغانستان ومازالت تحصد الناس بلا رحمة وبلا شفقة.

ولن نسجل هنا الوقائع اليومية لحروب الإبادة في هذين البلدين، إنما نورد بعض الإحصائيات المسجلة التي تشير إلى مدى الخسائر البشرية في الشعبين.

في العراق وصل عدد الذين قتلوا من العرب في العراق خلال ست سنوات مليون ومائتي ألف شخص من رجال ونساء وأطفال.

وفي أفغانستان وصل عدد الذين قتلوا حتى الآن أكثر من نصف مليون إنسان، وتتجاوز قوات التحالف الغربي كل الحدود في حروب الإبادة ضد المسلمين فالطائرات يومياً تقصف البيوت الطينية التي يسكنها الفلاحون والفقراء من الشعب الأفغاني، ولا يتورعون في قصف المساجد والمدارس وحرق المصاحف والكتب الدينية والقرى النائية والماشية والمزروعات.

---

(1) الشرق الأوسط 3/ 11/ 1992.

وحقد العنصرية الغربية طال الكثير من دور العبادة حتى أن أكثر من 400 مسجد دمرت في البوسنة لوحدها، ومنها مساجد تاريخية تعود إلى القرن السادس عشر والسابع عشر.

وتزداد العنصرية الغربية شراسة حين تسرق محتويات المتاحف والآثار التي تُعتبر كنوزاً لحضارات عربية قديمة كحضارة الآشوريين والبابليين وغيرهم.

وقد أشارت بعض التحقيقات والدارسات الموثقة إلى تلك اللصوصية الواسعة التي طالت المتاحف والآثار العراقية على يد قوات الاحتلال الأمريكي والتي من بينها جنود بالمئات من اليهود الصهاينة الذين نفذوا أوامر الحركة الصهيونية، وسرقوا آلاف المخطوطات والآثار العراقية القديمة، والتي تمس تاريخ اليهود الذي يفضح تزويرهم وتحريفهم للكتب الدينية والمخطوطات.

الفتوحات الإسلامية، نقلة نحو الحضارة الإنسانية:

هل انتشر الإسلام بالسيف؟.

هل قام المسلمون بحروب إبادة ضد غيرهم من أصحاب العقائد والأديان؟.

أم أن الفتوحات الإسلامية حررت الإنسان من عبادته للإنسان والأوثان؟.

أما أنها فتحت الباب لأرقى الحضارات المادية والمعنوية؟.

إننا لن ندافع عن حضارة الإسلام التي قامت على التسامح ونشر المعرفة واستيعاب الآخرين، لأننا عرب مسلمون وسنترك هامشاً ضئيلاً لنا، بينما سنترك للباحثين والمفكرين والعلماء الغربيين يتحدثون عن الحضارة العربية الإسلامية وآثارها الحضارية الراقية.

وقبل البدء بالاستشهادات الغربية لابد لنا أن نذكّر دعاة مركزية الغرب ومركزية الحضارة الغربية ببعض الحوادث البارزة في التاريخ بمقابل بعض الحوادث الأخرى التي برزت أيضاً في التاريخ.

لننظر إلى تحرير القدس زمن الخليفة عمر بن الخطاب، ولننظر إلى تحرير صلاح الدين للقدس وما تبع هذين الفتحين من أمور لابد أن تذكر وتُقارن بما فعله الرومان والإفرنج والصهاينة عندما احتلوا القدس وفلسطين.

لننظر إلى فتح الأندلس وما رافقه من تسامح وبناء حضاري عظيم لم تشهده أوروبا في تلك العصور.

من المعروف أن الرومان ظلوا جاثمين على صدر الشعب العربي في فلسطين وبلاد الشام مئات السنين، وعندما انتصر العرب المسلمون على الروم في اليرموك توجهوا إلى تحرير القدس، ومن دون زيادات في الحديث المفصل، دخل عمر بن الخطاب القدس وكان بطريرك المدينة صفرونيوس الدمشقي، فكتب عمر عهدته المشهورة التي مازالت بطريركية القدس الأرثوذكسية تحتفظ بها وقد جاء فيها: **هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم لا يُكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم**[1].

دخل عمر القدس، فهل تأذّى أحد من أهلها؟ هل قُتل أحد من الناس؟.

هل هدم كنيسة أو ديراً أو حطّم صليباً أو آذى شخصاً من غير المسلمين؟.

وحين حرر صلاح الدين بيت المقدس ترك للإفرنج حرية الخروج من القدس دون أن يُؤذى أحد، خرجوا يحملون جرار الذهب والفضة والأمتعة، لم يعترضهم أحد، ولم يعتدِ على أموالهم أحد على الرغم من أنهم مستعمرون طارئون.

وماذا فعل الإفرنج حين احتلوا القدس عام 1099، ألم يقتلوا 90 ألفاً من السكان، ألم يفتخروا بهذه الإبادة الجماعية في المدينة المقدسة؟.

يقول زوباروف: إن حمامات الدم وعمليات النهب الشاملة المقترفة في القدس قد حجبت المآثم والوحشيات المقترفة في إنطاكية[2].

---

(1) محمد الخضري، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، ص115.

(2) الصليبيون في الشرق، سبق ذكره، ص122.

ويقول في مكان آخر: برهن صلاح الدين أنه رجل دولة حكيم فعامل القدس وسكانها معاملة أرق وأخفّ بكثير مما عاملهم الغزاة الصليبيون[1].

وتقول زيغرد هونكه: لا إكراه في الدين، هذا ما أمر به القرآن الكريم، وبناء على ذلك فإن العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سمح لهم جميعاً دون أي عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى[2].

أوليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟. ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ وبعد فظائع الإسبان؟.

وهناك العشرات من المفكرين الغربيين الذين تحدثوا بإنصاف تجاه العرب والمسلمين، خاصة حين يقارنون بين تعاملهم مع الشعوب وتعامل الأوروبيين مع الشعوب التي وقعت ضحية استعمارهم واحتلالهم.

يورد روجيه غارودي قول ميشيل السوري: إن الله المنتقم قد أرسل إلينا بالعرب لينقذونا من الرومان، إن كنائسنا لم ترجع إلينا فقد احتفظ كلٌّ بما يملك ولكن العرب حررونا من وحشية البيزنطيين وحقدهم علينا[3].

وحين ننظر في صفحات التاريخ لنتعرف على طبيعة التعامل العربي أثناء الفتوحات التي تمت في خراسان وشمال الهند وأواسط آسيا نرى أنهم ضربوا أروع الأمثلة في التسامح والتعامل الإنساني المتقدم.

وبسبب ذلك فقد رأت الشعوب في الإسلام الملاذ الروحي والاجتماعي الآمن، وبدون فتوحات أو جيوش دخل الإسلام الكثير من الشعوب، حتى

---

(1) الصليبيون في الشرق، سبق ذكره، ص192.

(2) زيغرد هونكه، شمس العرب تستطع على الغرب، ص364.

(3) روجيه غارودي، فلسطين أرض الرسالات، ص120 ـ 121.

أصبحت أندونيسيا مثلاً مسلمة، وكذلك وسط آسيا وإفريقيا الوسطى وغيرها، وغيرها من البلدان وأبناء الشعوب على شتى أجناسها.

إن تلك الشعوب تعتز بإسلامها أيّما اعتزاز، بينما تحاول البعثات التنصيرية أن تنشر المسيحية الغربية بكل الإغراءات دون جدوى، وفي المقابل يقبل الغربيون على الإسلام بكل إرادة حرة، ودون مغريات وأساليب خادعة سارت عليها الكنائس الغربية.

إن الترابط بين النظريات العرقية العنصرية والسلوك الغربي أدّيا إلى انكفاء الدعوات المسيحية الغربية بنيما الترابط بين التسامح الإسلامي وإنسانية الرؤية الإسلامية والسلوك الإسلامي السامي أديّا إلى توسع الإسلام وانتقاله بسرعة إلى أقاصي الدنيا.

فهذه أوروبا تضم بين ثناياها أكثر من 30 مليون مسلم، حوالي نصفهم من أبناء الأوروبيين، وكذا الأمر في أمريكان وإفريقيا، فما من يوم يمر إلا وتشهد هذه القارات دخول العشرات منهم في دين الإسلام.

كل هذا دليل على حضارة الثبات في النفوس والأرواح والعقول، وزوال ما يسمى حضارة التلوّن الغربية.

وحين يدرس الغربيون تاريخ الإسلام وتاريخ الحروب الأوروبية والغربية بشكل عام يدركون جوهر الإسلام القائم على التسامح والإنسانية وجوهر الغرب القائم على نظرية الاستعلاء والعنصرية.

والإنسان بفطرته يميل إلى التمييز بين ما هو خير وما هو شر.

ما هو نافع للبشرية وما هو ضارّ لها.

إن جرائم حروب الإبادة التصقت بالغربيين ومشاريعهم الاستعمارية العنصرية، ولعل مجازر القدس والعراق وأفغانستان ما تزال شاهدة على عنصرية المشاريع الاستعمارية الغربية.

لم يعرف العرب حروب إبادة ولم يعرف شعب غير عربي حروب إبـادة ضـد المدنيين، لأن القانون الإسلامي هو قانون إلهي يحرم القتل والتعرض لأرواح الناس وأموالهم وممتلكاتهم.

ولو اطلعنا على تاريخ الشعوب التي فتح بلادها المسلمون لما وجدنا ما يـشير إلى ما يسمى حروب إبادة أو قتل على الهوية أو بسبب الدين والمذهب.

أما الحضارة الغربية فهي تشهد على نفسها بما قامت به من حروب إبادة وقتل جماعي بسبب اختلاف الدين والمذهب، أو اخـتلاف وجهـات النظـر الـسياسية أو غيرها.

وهناك عشرات الشهادات مـن الأوروبيـين أنفـسهم حـول تلـك الحـضارة الغربية المسيحية وما قامت به من جرائم يندى لها الجبين.

فالكاتبـة هيلـين إيلـيربي كتبـت كتابـاً بعنـوان (الجانـب المظلـم في التـاريخ المسيحي)، وسنورد بالأرقام ما قامت به الكنيسة الكاثوليكية من حروب إبادة ضد الأوروبيين أنفسهم وفي عدة مناطق وبلدان أوروبية.

1 ـ في عام 1275م حرّم البابا كنسيا مدينة فلورنـسا كلهـا، وعنـدما نظمـت مجموعة من دول المدينة الإيطالية الصغيرة ثورة ضد سـيطرة البابـا في عـام 1375، استأجر نائب البابا في إيطاليـا روبـرت أوف جينيفـا عـصابة مـن المرتزقـة لإعـادة الاستيلاء على المنطقة، وبعدما أخفقت في الاستيلاء على مدينة بولونيا انطلقت هذه العصابة للهجوم على بلدة سيسنا الصغرى، مقسمين قسم الرحمة بيمين مهيب عـلى قبعة الكاردينال، وأقنع الكاردينال روبرت رجـال سيـسنا حتـى يلقـوا أسـلحتهم وكسب ثقتهم بطلب خمسين رهينة فكان أن أطلق سراحهم مع الفور بمثابـة بـادرة حسن نية ثم حشد مرتزقة وجمعهم وأمرهم بالقيام بمذبحة عامة، ولمدة ثلاثـة أيـام تولى الجنود الذبح وباتت جميع الساحات مليئـة بـالموتى، وفي محاولـة للنجـاة غـرق مئات في الخناق وطعنوا بظهورهم بسيوف لا تعـرف الـشفقة واعتقلـت نـساء مـن

أجل الاغتصاب وفُرضت الفدية على الأطفال وأعقب النهب القتل، وكان عدد القتلى ما بين 2500 إلى 5000 قتيل[1].

2 ـ في عام 1139 بدأت الكنيسة بالدعوة إلى مجامع كنسية لإدانة الكاثاريين وهم من سكان جنوب فرنسا، وكانوا على خلاف مع الكاثوليكية، وفي عام 1179 أعلن البابا الاسكندر الثالث حرباً صليبية ضد أعداء الكنيسة هؤلاء، واعداً بغفران عامين والإعفاء من العقوبة لاقتراف الذنوب إلى الجميع الذين سوف يحملون السلاح مع خلاص سرمدي لكل من سوف يموت، واستخدمت كل هذه الإجراءات لتزويد الكنيسة بقوة عسكرية لمحاربة الخلافات الكنسية الخاصة.

وبدأت الكنيسة حربها ضد الكاثاريين وامتدت ثلاثين عاماً، أبيد فيها عُشر سكان لاندوك ـ وهي إحدى أكبر مدن الكاثاريين ـ ففي كنيسة القديس الناصري وحدها جرى قتل اثني عشر ألف إنسان، وأعدم فولوك أسقف طولوز عشرة آلاف إنسان، وقد كتب أحد المؤرخين يقول: حتى الميت لم يكن آمناً من الإهانة، وكانت أسوأ أعمال الإهانات هي تكويم الأموات وتكديسهم فوق النساء، وكان عدد الذين قتلوا في مدينة بيزيرس عشرين ألفاً حسب رواية النائب البابوي.

وقد قتلت الحملة الصليبية الألبينية مليوناً من الناس فهي لم تقتل الكاثاريين وحدهم بل قتلت كثيراً من سكان فرنسا، بعد ذلك ضمّت أراضي جنوب فرنسا إلى الشمال بعد أن تمت إبادة سكانه تماماً، وبالحرب التي امتدت ثلاثين عاماً بشرت الحملة الصليبية بنهاية مدة زمنية طولها 500 عام من الظلم والتنكيل الوحشي وهي مدة بطولها وبمدى اتساعها لا نظير لها في العالم الغربي[2].

3 ـ في يوم 24 آب عام 1572 قام الكاثوليك بأمر من البابا بذبح عشرة آلاف بروتستانتي في فرنسا، وقد كتب البابا غريغوري الثالث عشر إلى ملك فرنسا

---

(1) هيلين إيليربي، الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، ترجمة د. سهيل زكار، ص85 ـ 86.

(2) المرجع السابق، ص89.

شارل التاسع يقول: نحن نبتهج معك إنه بعون الرب قد حررت العالم من هؤلاء الهراطقة الأشرار[1].

وهناك عشرات الأمثلة من هذا القبيل، وهي شاهد على ما قامت به الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى من مذابح وإبادة جماعية لكل معارضيها دينياً ومذهبياً.

(1) المرجع السابق، ص111.

obeikandl.com